

## خلق الكون والإنسان في نهج البلاغة

الباحث: زافر ستار حميد بلال (مؤسسة كاشف الغطاء – النجف الاشرف)

### مقدمة

الحمد لله الذي جعل كلام باب مدينة علم نبيه حجة على الخاصة والعامة حتى قيل كلام الإمام إمام الكلام والصلاة والسلام على حبيبه المصطفى المبعوث بشرائع الإسلام المظلل من حر الهجير بالغمام وعلى آله الطاهرين سادات الأنام.

وبعد:

فهذا بحث وجيز حاولت أن أتطرق فيه إلى ما جاء في كلام سيد الموحدين ويعسوب المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) من شذرات ثمينة كاشفة عن حقائق جلية في خلق الكون وما يتبع ذلك من خلق الإنسان وقد اقتصرْتُ بهذا الصدد على الرجوع الى خطبة التوحيد التي هي من جلائل أقواله (عليه السلام) في معنى الخلق وما يتعلق به وشرحتُ بإيجاز مفردات المختار من تلك الخطبة المباركة وبيان المعنى، ثم طرحت أحدث النظريات في هذا الباب لعلماء غير مسلمين ومنها نظرية دارون ونظرية الانفجار الكوني العظيم وقد بدا لي من خلال هذه الدراسة الموجزة أن هذه النظريات في جملتها- وهنا نؤكد على جملتها - لا تعارض الحقائق التي أشار إليها الإمام (عليه السلام) في مبدأ خلق الكون والإنسان. وأيضاً تطرقت إلى تجربة محاكاة الانفجار الكوني و التي جاءت الإشارة إليها في كلامه (عليه السلام) على نحو كلي ترك تفصيله للأيام لعدم إسعاف الأدوات العلمية والآلات الكشف في ذلك الزمان مع عدم تهيأ العقول في عصره (عليه السلام) .

على أن الذي ينبغي بيانه أن كلام الإمام (عليه السلام) هو الفيصل والحاكم على تلك التجارب والنظريات لأنه سلام الله عليه أخذ ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) الذي لا ينطق عن الهوى أن هو وحى يوحى.

وفي الختام ابتهل إلى الله تعالى أن يوفق الباحثين في علوم الكون والحياة الى ان يقتبسوا من أنوار كلام أهل بيت العصمة ويستنبطوا الحقائق التي لا مرية فيها من تلك الاقباس الوضائة انه سميع مجيب.

### خلق العالم

قال الإمام علي (عليه السلام) «أُنشأ الخلقُ إنشاءً وابتدأهُ ابتداءً بلا رويّة آجالها ولا تجرّبة استفادها ولا حركة أحدثها ولا همامة نفس اضطرب فيها أحال الأشياء لأوقاتها ولأمّ بين مختلفياتها وعزّز عزائزها وألزمها أشباحها عالمًا بها قبل ابتدائها محيطًا بحُدودها وأنتهائها عارفاً بقرانيتها وأحنائها».

يتطرق الإمام (عليه السلام) هنا الى خلق العالم وكيفية ابتداء الخلق والعجائب التي انطوت عليها السماء والأرض، فقد قال (عليه السلام) : «أُنشأ الخلقُ إنشاءً وابتدأهُ ابتداءً بلا روية<sup>1</sup> آجالها<sup>2</sup> ولا تجربة استفادها ولا حركة أحدثه ولا همامة<sup>3</sup> نفس اضطرب فيها.

<sup>1</sup> «أُنشأ» من مادة «إنشاء» بمعنى الابداد وان ذكروا لها عدّة معان.

فالإمام(عليه السلام) يبين البون الشاسع بين الخلق الإلهي والأعمال والأفعال التي تصدر عن المخلوقات.

فالإنسان مثلاً إذا أراد أن يقوم بعمل ولم يكن لهذا العمل من سابقة وظن فكره وتأمله لينطلق إليه، وإن كان له سابقة احتذى بتجربته وتجارب الآخرين كما يعمد إلى خزينه الذهني والفكري بشأن ترتيب مقدمات العمل بغية التوصل إلى نتائجه وكيفية أدائه، وأحياناً يتيه في ترديده وحيروته بحيث يحكم رأيه ويقوم بالعمل على أساسه.

وليس هنالك من سبيل لأي من هذه الحالات والاحتمالات للذات الإلهية المقدسة، فما من حاجة إلى الفكر والتأمل ولا إلى التجارب السابقة ولا الحركة الفكرية استناداً إلى ترتيب المقدمات والحصول على النتائج ولا التردد والاضطراب في الأعمال والقرارات. فليس وجود الشيء إلا إرادته (إثما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)°.

بعبارة أخرى فان هذه الاحتمالات الأربع إنما تتعلق بحصيلة أعمال الأفراد الذين له حظ محدود من العلم والقدرة، ولازمة ذلك الحاجة وأفكار الآخرين وتجاربهم والشعور بالاضطراب والقلق.

ولا سبيل لهذه الحالات إلى من خرج علمه وقدرته عن الحدود حين الخلق. ويتضح بجلاء مما قيل أنّ المراد بالحركة في العبارة المذكورة إنما هي حركة الفكر في باطن النفس.

ولكن هناك معنى آخر ساقه بعض المفسرون للحركة على أنّ المراد بها الحركة الجسمية الخارجية التي تعدّ من لوازم الأجسام والله أعظم وأجل وأسمى من الجسم والجسمانيات.

ويبدو أن المعنى الأول أنسب من الثاني؛ لأنّ الحالات الثلاث الأخرى التي وردت قبل وبعد العبارة المذكورة كلها مرتبطة باتخاذ القرار والتفكير والتأمل قبل الإتيان بالعمل.

وزيادة الكلام أنّ أفعال الله ليست من جنس أفعال العباد وتختلف عنها تماماً، وذلك لأنّ أفعاله سبحانه تستند إلى علمه المطلق بمصالح الأشياء ومفاسدها ومعرفة الكاملة بالنظام الأحسن للخلقة والقدرة التامة على جميع الأشياء، وإرادته قاطعة تامة لا لبس فيها ولا تردد ولا تأمل وتفكير في إفاضة الوجود على الموجودات، وإرادته كانت وما زالت نافذة في الخلق.

ثم أشار(عليه السلام)إلى كيفية خلق الموجودات والتدبير الإلهي في ظهور الأشياء طبق الخطط والبرامج المنظمة فقال(عليه السلام) : «أحال الأشياء لأوقاتها» أي أنّ الله جعل لخلق كل موجود وقتاً معيناً (وذلك لأنّ خلقه قائم على أساس التدرّج والتخطيط الزمني بغية

² «روية» بمعنى الري من الماء كما ورد في مقاييس اللغة، الا انها تستعمل بمعنى التفكير المصحوب بالدقة. وكانه يروي فكره بشأن تلك المسألة، أو ري تلك المسألة بفكره واداء حق التفكير.

³ «أجال» من مادة جولان بمعنى الحركة والتجوال.

⁴ . «همامة»: لقد ذكر شراح ومفسروا نهج البلاغة لهذه المفردة عدّة معان. فقد عناها البعض بالرغبة القطعية الباطنية بالشيء بحيث ينزع لفقدانها (شرح ابن ميثم البحراني ١ / ١٣٢). بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها تعني التردد في القيام بعمل (منهاج البراعة ١ / ٥١). وقال آخرون أنّها تعني الاهتمام بالشيء (شرح مغنية ١/٢٧). وقال ابن أبي الحديد في شرحه المعروف لنهج البلاغة: وقوله(عليه السلام): «ولا همامة نفس اضطرب فيها» فيه رد على المجوس والوثنية القائلين بالهمامة الذين يعتقدون بأنّ النور الأعظم حين هم بمجابهة الظلمة بدا عليه الشك والترديد فخرج من ذاته بشيء يسمى بالهمامة. أمّا في اللغة - كما ورد في لسان العرب - فالهمامة تعني الضعف والوهن والفتور ولذلك يطلق على كل رجل أو امرأة عجوز اسم «هم» و«همة». ويبدو ممّا ذكر أنّ «الهمامة» الواردة في العبارة إنما تعني الضعف والعجز في العزم والإرادة بحيث يتعذر على الشخص اتخاذ القرار، أو أنّه يتخذ القرار بصعوبة.

° سورة يس / الآية ٨٢ .

إيضاح عظمة تدبيره وقدرته الفريدة الفائقة). فلما فرغ من الإشارة إلى التصنيف الزمني لخلقه الموجودات، تطرق (عليه السلام) إلى نظامها الخاص الداخلي والتركيبي فقال (عليه السلام): «ولام<sup>1</sup> بين مختلفاتها».

وهذا من عجائب عالم الخلق، فقد أَلف الله سبحانه بين مختلف الموجودات لتبدو متناسقة وكأُنها شيء واحد، فقد لائم بين البارد والحر والظلمة والنور والموت والحياة والماء والنار. لقد خلق النار من الشجر الأخضر وخلق الإنسان والحيوان والنبات مركباً من مواد تامة الاختلاف ذات طبائع متنوعة.

وأبعد من ذلك فقد أوجد رابطة عميقة محكمة بين الروح والجسم وهما ينتميان إلى عالمين مختلفين تماماً؛ أحدهما مجرد ونوراني وشفاف للغاية والآخر مادي وظلماني وخشن للغاية. ثم قال (عليه السلام): «وغرز<sup>2</sup> غرائزها».

هناك اليوم تعبيران مختلفان بشأن الدوافع الذاتية في الإنسان أو سائر الموجودات، فأحياناً يطلق عليها اسم الفطرة وأن معرفة الله مودعة في الفطرة الإنسانية.. وأحياناً أخرى يعبر عنها بالغريزة.

فمثلاً يقولون أنّ للإنسان غريزة جنسية، أو يقولون بأن لحركات الحيوانات عموماً صبغة غريزية.

وهذا في الواقع اصطلاح استعمله العلماء بهذا الشأن. أحدهما بشأن الدوافع التي تتسم بالبعد الفكري (الفطرة) والآخر بخصوص تلك التي ليس لها بعداً فكرياً أو لها بعد عاطفي (الغريزة).

إلا أنّ كليهما يعنى الخلق على أساس المعنى اللغوي.

ثم قال (عليه السلام): «والزمها أشباحها».

وقد تضاربت أقوال المفسرين - لنهج البلاغة - بشأن هذه العبارة، فذهب البعض ومنهم ابن أبي الحديد الذي قال ان الضمير المنسوب في «الزمها» عائد إلى الغرائز؛ أي ألزم الغرائز أشباحها، أي أشخاصها لأنّ كلا مطبوع على غريزة لازمة، وبالنتيجة فإن العبارة تأكيد على ثبوت غرائز الموجودات. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بالعبارة وجود الشخصيات الخاصة لكل موجود، أي أنّ الله سبحانه قد وهب كل موجود بعض الخصائص والمميزات، وبعد أن كان لها بعداً كلياً في علم الله فقد تبلورت في الخارج على هيئة جزئيات وأشخاص وعلى ضوء هذا التفسير فإن الضمير في ألزمها يعود إلى (الإشياء) كما ذكر البعض كلا التفسيرين على نحو الاحتمال. ولكن لما كان التفسير الأول لا يتضمن انسجام الضمير وما ذهب إليه، إضافة إلى كون العبارة تتخذ طابع التأكيد لا بيان موضوع جديد، فإنّ الذي يبدو أنّ التفسير الثاني أصح وأصوب من التفسير الأول.

وتوضيح ذلك أنّ الله تبارك وتعالى قد وهب كل موجود نوعين من الخصائص. الخصائص التي أودعت باطن ذاتها والتي عبر عنها الإمام (عليه السلام) بالغرائز، والخصائص

<sup>1</sup> «لام» و«لائم» من مادة «لام» بمعنى الجمع والإصلاح وضم شيء إلى شيء آخر والملائمة بينهما، ومن هنا اطلق على الدرع اسم «لأمة» على وزن «رحمة» لالتحام حلقاتها وتداخلها مع بعضها.

<sup>2</sup> «غرز» من مادة «غرز» على وزن «فرص» تعني في الأصل غرس الأبرة أو الجعل والادخال، ثم اطلقت فيما بعد على الطبائع التي أودعت الإنسان أو سائر الكائنات الحية، وكانّ هذه الطبائع بمثابة البذور التي غرست في أرض الوجود الإنساني.

<sup>3</sup> «أشباح» جمع «شبح» طبق ما أورده أغلب أرباب اللغة بمعنى الشخص في الأصل، كما وردت بمعنى ظهور الشيء واتضاحه، ومن هنا يطلق الشبح اليوم على الموجود الذي يترأى ظله ثم يظهر فجأة.

الجوانب الظاهرية من قبيل الزمان والمكان وسائر الجزئيات والتي عبر عنها الإمام(عليه السلام) بقوله «ألزمها أشباحها» وعلى هذا الأساس يكون الحق واستناداً لحكمته البالغة في افاضته للخصائص الباطنية والظاهرية لكل موجود ليقوم بوظائفه الخاصة به على ما يرام ويتميز عن سائر الموجودات<sup>٩</sup>.

### الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم

لقد تضمنت عبارته(عليه السلام) إشارة لنقطة مهمة طالما ورد التأكيد عليها تكراراً في القرآن: وهي أنّ لكافة موجودات عالم الخلق والمادة تصنيف زمني خاص وفي نفس الوقت الذي يحكمها التضاد والاختلاف إلا أنها منسجمة مع بعضها البعض ومكملة لها وأنها مهدية على الدوام طبق نظمها الذاتي الباطني والظاهري وأنها تنطلق كقافلة منتظمة ومنسجمة نحو هدفها النهائي دون أي تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقة دون أن تخطأه فتفتح الزهور وتحمل أوراق الأشجار للفاكهة والثمار في فصلي الربيع، ذبولها وجفافها وتساقطها في فصلي الخريف والشتاء، حركة الشمس في الأبراج الاثني عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما أودع الإنسان من قوى باطنية وظاهرية كلها شواهد على الهداية التكوينية الإلهية، والتي صرّح بها القرآن على لسان موسى(عليه السلام): (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) <sup>١٠</sup> وقال: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) <sup>١١</sup> وهذا في الحقيقة يمثل آية من آياته سبحانه في عالم الوجود التي تجعل الإنسان أكثر معرفة بالهداية التكوينية والنظم والتصنيف الزمني والتأليف بين الاضداد والمختلفات كلما تعمق في التفكير بهذا العالم.

ثم قال(عليه السلام): «عالمًا بها قبل ابتدائها محيطًا بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائن<sup>١٢</sup> وأحنائها<sup>١٣</sup>» والواقع أنّ هذه العبارات الثلاث قد جاءت بمثابة دليل أو إيضاح للعبارات السابقة، وذلك لأنّ من أراد أن يخلق موجوداً في وقته المناسب ويلتزم بين الأشياء المختلفة ويودعها غرائزها الباطنية ولوازمها الظاهرية فانه يحتاج إلى علم جامع كامل من جانب وإلى إحاطة وقدر تامة وشاملة من جانب آخر.

ولذلك قال(عليه السلام): «عالمًا بها قبل ابتدائها...» ولا يقتصر علمه على ابتدائها وانتهائها فحسب، بل هو عالم محيط بلوازمها وعللها وأثارها أيضاً. ومن المفروغ منه أن من كان عالماً بهذه الأمور قادراً على الإتيان بها، فان له أن يضع كل شيء في موضعه ومكانه ويفيض على كل منها لوازمه ويسوقه في مسيرته الوجودية إلى كماله المنشود<sup>١٤</sup>.

### كيفية بداية خلق العالم

<sup>٩</sup> ينظر كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

<sup>١٠</sup> سورة طه / الآية ٥٠.

<sup>١١</sup> سورة الروم / الآية ٣٠.

<sup>١٢</sup> «قرائن» جمع «قرينة» بمعنى المصاحب والرفيق، ولذلك يقال لزوجة الرجل قرينته (الصحاح والقاموس

وسائر الكتب اللغوية)، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغة كابن أبي الحديد إلى أنّ القرآن جمع قرونة (على وزن معونة) وهي النفس ولكن يبدو المعنى الأول أنسب بالاستناد إلى التعبيرات التي وردت في الجملة

<sup>١٣</sup> «أحناء» جمع «حنو» على وزن فعل «وحنو» على وزن حرف وتطلق على كل شيء فيه اعوجاج وانحناء

- على ضوء ماورد في المقاييس ولسان العرب - كعظم الفك والاضلاع. ثم وردت بمعنى الجوانب أيضاً (وذلك لأن جوانب وأطراف الأشياء غالباً ما تشتمل على انحناءات).

<sup>١٤</sup> ينظر كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

ثم قال (عليه السلام) «ثُمَّ أَنْشَأَ سُبحَانَهُ فَتَقَّ الأَجْوَاءَ وَشَقَّ الأَرْجَاءَ وَسَكَئِكَ الهَوَاءَ». لقد تناول الإمام (عليه السلام) بداية انبثاق الخلق فقال (عليه السلام) : «ثم أنشأ سبحانه فتق<sup>١٥</sup> الأجواء<sup>١٦</sup>» وهو يشير إلى شق الطبقات الجوية، ثم فتح جوانبها وأطرافها «وشق<sup>١٧</sup> الأرجاء<sup>١٨</sup>» وأوجد الفضاء والهواء «وسكائك<sup>١٩</sup> الهواء». فقد أشير إلى فتق الأجواء ثم ايجاد أطرافها وجوانبها ومن ثم طبقاتها. وتشير العبارة بأجمعها إلى أن الخلق الأول في عالم المادة كان خلق فضاء العالم، الفضاء الذي يسعه استيعاب الكرات السماوية والمنظومات وما إلى ذلك، بالضبط كالصفحة الورقية التي يعدها الرسام الماهر مسبقاً لرسم ما يشاء. ومن هنا يتضح أن كلمة «ثم» في العبارة لا تفيد معنى الترتيب التكويني، بل تفيد الترتيب والتأخير البياني؛ لأنه قد أشير في العبارات السابقة إلى خلق أنواع الموجودات والكائنات، ومن المتيقن ألا تكون قد أعقبت بخلق الفضاء ثم كريات السماء والأرض.

على كل حال فإنّ ظاهر هذه العبارة تفيد أن الفضاء أول مخلوق في عالم المادة، غير أن هناك ترديد لدى بعض الفلاسفة والمتكلمين بشأن الفضاء في أنه أمر وجودي أم عدمي؟ فهناك من يعتقد كما أن الزمان قد ظهر بعد انبثاق الموجودات وحركتها (لأنّ الزمان هو وحدة الحركة) فإن المكان هو الآخر قد حصل بعد ظهور الأجسام المختلفة ومقارنتها مع بعضها. والحال يتعذر علينا تصور عدم وجود مكان مطلق إثر ظهور أول جسم إلى الوجود. فلو أردنا أن نبني عمارة ذات عدة طبقات فإننا نحتاج إلى فضاء تشغله تلك العمارة كحاجتنا إلى مكان على الأرض نبنيها عليه، وإذا أردنا أن نبني عمارة أكبر فإنها ستحتاج إلى فضاء أوسع. والخلاصة فإننا نؤمن بما أورده الإمام (عليه السلام) بقوله «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء»<sup>٢٠</sup>.

## الماء كان أول مخلوق

ثم قال (عليه السلام) «فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَطِّمًا تَيَّارُهُ مُتْرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَنِّ الرِّيحِ العاصِفَةِ وَالزَّعْزَعِ القاصِفَةِ فَأَمْرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَّنَهَا إِلَى حَدِّهِ، الهَوَاءَ مِنْ تَحْتِهَا قَتِيقٌ وَالمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ».

<sup>١٥</sup> «فتق» على وزن مشق بمعنى الشق والضحوة بين شينين وهي ضد الرتق (كما أورد ذلك الراغب في مفرداته). ويقال للصبح «فتيق»، لأنه يشق الافق ويظهر، وقال صاحب لسان العرب انه يطلق «فتيق اللسان» على الفرد الخطيب والفتيح اللسان، لأنه يتحلى بلسان طلق ذرب.

<sup>١٦</sup> «أجواء» جمع «جو» بمعنى - حسب قول المفردات ولسان العرب - الفضاء الحاصل بين السماء والأرض.

<sup>١٧</sup> «شق» بمعنى الفتحة في الشيء، ومن هنا اطلق الشقاق على الاختلاف الذي يحدث بين الناس ويفصلهم عن بعضهم البعض الآخر.

<sup>١٨</sup> «أرجاء» جمع «رجا» (دون همزة) تعني حسب «مقاييس اللغة» أطراف البئر أو أطراف أي شيء آخر، الرجاء بالهمزة فيعني الأمل. بينما يعتقد البعض من قبيل كاتب «التحقيق» أن معناها الأصلي الشيء الذي يرجى وقوعه في الجوانب الأطراف، ولذلك يطلق على هذه الجوانب والأطراف المرجوة «رجا» دون همزة.

<sup>١٩</sup> «سكائك» جمع «سكاكة» على وزن خلاصة، قال صاحب لسان العرب أنها تعني الفضاء الواقع بين السماء والأرض، وقال ابن أبي الحديد هي أعلى الفضاء.

<sup>٢٠</sup> ينظر كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

ما يستفاد من كلمات أمير المؤمنين علي(عليه السلام) ولاسيما في هذه العبارات وما سيتبعها في توضيح كيفية خلق العالم هو أنّ الله سبحانه قد خلق ابتداءً الماء - أو بتعبير آخر - مانعاً يشبه الماء ثم حمله على ريح عاتية شديدة، وقد أمرت هذه الريح أن تحفظ هذا المانع وتحول دون تشتته وتفرقه.

ثم هبت ريح شديدة أخرى بهدف ايجاد أمواج في ذلك المانع العظيم والواسع فجعلت الريح تلك الأمواج أعظم وأشد ثم دكتها على بعضها، ثم تموج ذلك المانع تمويجاً شديداً حتى ارتفع في الفضاء، فخلق منه السموات السبع.

جدير بالذكر أنّ الماء والريح والعاصفة وما شابه ذلك - في ذلك الوقت الذي لم يكن فيه ماء ولا ريح ولا عاصفة - كناية عن موجودات شبيهة بما نراه اليوم من ماء وريح وهواء، وذلك لأنّ واضعي المفردات قد جعلوا هذه الكلمات لمثل هذه الأمور، فلم يضعوا آية مفردة لما حدث أوائل خلقة العالم. وان أدنى تأمل يجعل من الممكن تفسير ما ورد من عباراته (عليه السلام) على ضوء آخر الفرضيات والنظريات التي طرحها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، ولا نقول إنّ هذا هو مراد الإمام (عليه السلام) على سبيل القطع، بل نحتمل أن يكون تفسيره كذلك.

فأخر الفرضيات التي توصل إليها العلماء بشأن بداية ظهور العالم، هو أنّ العالم برمته في البداية كان بهيئة كتلة غازية عظيمة شبيهة بالمانع، كما يمكن الاصطلاح عليها باسم «الدخان»، أو بتعبير آخر كانت الطبقات العليا من العالم دخاناً، وكان هذا الدخان يتخذ شكل المانع بفعل حالة الضغط كلما إقترب من مركز العالم.

أمّا الشيء الذي تكفل بحفظ تلك الكتلة العظيمة للغاية إنّما تمثل بالجاذبية التي تحكم جميع ذرات العالم، وقد سلطت هذه الجاذبية على ذلك الغاز المانع فشده وحالت دون خروجه من حدوده.

ثم ابتدأت هذه الكتلة العظيمة بالدوران حول نفسها (أو أنّها كانت تدور حول نفسها منذ البداية) وهنا ظهرت قوة الطرد المركزية<sup>٢١</sup> وقد أدت قوة الطرد المركزية هذه بتلك الكتلة العظيمة من ذلك الغاز المضغوط أن تقذف في الفضاء الخالي، وعلى حد تعبير نهج البلاغة كما سيأتي في العبارات التالية من هذه الخطبة «فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم ظهرت منها المنظومات والكواكب والكرات الصغيرة والكبيرة للعالم؛ الأمر الذي نعتة القرآن ونهج البلاغة بالسموات السبع.

طبعاً كل ما نريد أن نقوله - دون الاصرار على هذا الموضوع - هو الانسجام القائم بين عبارته(عليه السلام) والفرضيات والنظريات العلمية الواردة بذات الشأن، حيث يمكن استيعاب كلام الإمام علي(عليه السلام) على ضوء النظريات والأطروحات العلمية المعاصرة بخصوص ظهور السموات والارضين والكواكب والأجرام السماوية وسائر الكرات.

<sup>٢١</sup> كل شيء يدور حول نفسه إنّما يتعرض إلى قوة تحاول طرده من المركز، كالشعلة التي ندورها بايدينا فإذا تركناها فجأة قذفت إلى نقطة بعيدة، وما هذا إلا لوجود قوة الطرد المركزية، وكلما تضاعفت هذه القوة فإن شدة القذف خارجاً تتناسب طردياً وازدياد تلك القوة.

وننتقل الآن إلى أصل عبارته، فقد قال الإمام(عليه السلام) : «فأجرى فيها ماء متلاطماً<sup>٢٢</sup> تياره<sup>٢٣</sup>».

«التلاطم» بمعنى اصدام الأمواج ببعضها، والتيار يعني الموج، ولا سيما الأمواج التي يقذفها الماء خارجاً، أفليس هذا الماء المتلاطم والمتدفق هو تلك الغازات الأولية المضغوطة التي تمثل المادة الأولية للعالم على ضوء نظريات العلماء واطروحاتهم؟ ثم أكد الإمام علي(عليه السلام) على شدة تدفق ذلك الماء وعظم تلاطمه فقال: «متراكم زخاره».

ثم أضاف(عليه السلام) : «حمله على متن الريح العاصفة والزعزعة القاصفة». فالعاصف بمعنى الضاربة والكاسرة والزعزعة بمعنى المضطربة والشديدة الهبوب وكذلك القاصفة التي تهلك الناس بشدة هبوبها، وكأن كل هذه المفردات تأكيدات متتالية لبيان قوة تلك الريح وسعتها وشموليتها.

ثم أمرت هذه العاصفة العظيمة المرعية بحفظ أجزاء الماء مع بعضها البعض ضمن حدودها «فأمرها برده، وسلطها على شدة، وقرنا إلى حده». أو ليست هذه العاصفة العظيمة والشديدة إشارة إلى أمواج الجاذبية التي سلطها الله على جميع ذرات عالم المادة والتي كانت سبباً لتماسك أجزائها وعدم تشتتها وتناثرها، وتقبيدها بالحركة في إطار حدودها؟ فهل هناك من تعبير أروع وأدق من الريح العاصفة القاصفة لتبيين الأمواج العظيمة للجاذبية في ظل تلك الأجواء.

وقد حصلت كل هذه الأمور و«الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق» والفتيق من مادة فتق بمعنى المفتوق؛ المفتوح، ودفيق من مادة دفق بمعنى الحركة السريعة.

نعم إن هذه الأمواج المتدفقة إنما تحد بواسطة تلك الريح العاصفة، فتحول دونها ودون تجاوزها لحدودها - وهنا يبرز هذا السؤال: كيف تظهر تلك الأمواج المتدفقة على سطح الماء رغم وجود تلك الريح العاصفة الحائلة والمائعة، فالمعروف أن تلك الأمواج عادة ما تظهر بفعل حركة الرياح والعواصف، رغم أن الرياح هنا تلعب دور المانع والحائل لتلك الأمواج، إذن ما العامل الذي يقف وراء حركة الأمواج.

يبدو أن العامل الذي يقف وراء ظهور هذه الأمواج هو شيء كامن في باطنها بحيث يجعله يتلاطم على الدوام.

ولكن ليست لدينا رؤية واضحة لماهية هذا العامل، إلا أنه ينسجم تماماً والنظريات التي أوردتها العلماء المعاصرون بهذا الشأن<sup>٢٤</sup>، فهم يقولون أن انفجارات نووية متواصلة وقعت في جوف الغازات الأولى ذات الطبيعة المائعة، وهي هذه الانفجارات التي تحدث اليوم في الشمس. فهذه الانفجارات العظيمة قضت على سكون واستقرار هذه الغازات المائعة وأوجدت تلك التلاطمات في أمواجها المتدفقة.

ولا بد لنا من متابعة المقطع الآخر لإكمال هذا القسم فنقف على الصورة الدقيقة التي رسمها الإمام(عليه السلام) لإنبتاق الخليقة.

<sup>٢٢</sup> «متلاطم» من مادة «لطم» على وزن ختم بمعنى صفع الوجه باليد، ثم استخدمت هذه المفردة لاحقاً بمعنى اصطدام الأمواج مع بعضها.

<sup>٢٣</sup> «التيار» بمعنى أمواج البحر التي يقذف بها الماء، وقد أطلقها البعض مقابيس اللغة ولسان العرب) على كل نوع من الأمواج .

<sup>٢٤</sup> وسنورد لاحقاً بشيء من التفصيل نظرية الانفجار الكوني العظيم وتجربة محاكاة الانفجار الكوني

## دور العواصف في انبثاق الخلقه

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا أَعْتَقَمَ مَهَبَهَا وَأَدَامَ مُرَبِّهَا وَأَعَصَفَ مَجْرَاهَا وَأَبْعَدَ مَنَشَأَهَا فَأَمْرَهَا بِتَصْفِيْقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَّضَتْهُ مَخْضَ السَّقَاءِ وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفُضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عِبَابُهُ وَرَمَى بِالزَّبِيدِ رُكَامَهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَيْقٍ وَجَوْ مُنْفَهَقٍ فَسَوَى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سَفْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا وَعُليَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَسَمَكًا مَرْفُوعًا بَغْيَرٍ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا وَلَا دِسَارَ يَنْظُمُهَا ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا وَقَمْرًا مُنِيرًا فِي فَلَكَ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ».

ثم قال (عليه السلام) : «ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها».

فالريح العقيم هي الريح الخالية من السحب التي تؤدي إلى نزول المطر.  
ثم أشار في المرحلة الثانية إلى مهمة هذه الرياح «فامرها بتصفيق<sup>٢٥</sup> الماء الزخار، واثارة موج البحار» فقامت هذه الرياح العاتية العظيمة بمخض الماء كقرب السقاء «فمخضته مخض السقاء».

«وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم قال (عليه السلام) : «ترد أوله إلى آخره وساجيه<sup>٢٦</sup> إلى مائره<sup>٢٧</sup>».

وقال (عليه السلام) في المرحلة الثالثة بشأن تراكم المياه وارتفاعها «حتى عب عبا<sup>٢٨</sup>» بمعنى ارتفع أعلاه «ورمى بالزبد ركامه».

ثم قال (عليه السلام) في المرحلة الرابعة: «فرفعه في هواء منفق وجو منفق<sup>٢٩</sup>» فخلق منها تبارك وتعالى السموات السبع «فسوى منه سبع سموات» حيث جعل الأقسام السفلى، كالأمواج المكفوفة الممسوكة والطبقات العليا كالسقف المحفوظ «جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعلياهن سقفا محفوظاً وسمكاً<sup>٣٠</sup> مرفوعاً».

ثم أشار (عليه السلام) إلى عدم وجود الأعمدة التي تحملها ولا المسامير التي تحكم وثاقها فقال: «بغير عمد يدعمها ولا دسار<sup>٣١</sup> ينظمها» وأخيراً تأتي المرحلة الأخيرة - الخامسة - «ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب».

ثم أشار (عليه السلام) إلى القمر والشمس وتحرك كل منهما ضمن مداره «وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائير».

<sup>٢٥</sup> «تصفيق» من مادة «صفق» على وزن سفق بمعنى تقلب الشيء بعضه على بعض بحيث يصاحبه الصوت، ومن هنا اطلق التصفيق على ضرب الكفين - وهي هنا بمعنى تحريك المياه وتقليبها على بعضها (لسان العرب، مقاييس اللغة، شرح محمد عبدة).

<sup>٢٦</sup> «ساجي» من مادة «سجو» على وزن سهو بمعنى السكون والهدوء.

<sup>٢٧</sup> «مائير» من مادة «مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة، وتطلق هذه المفردة أيضاً لأن الناس يتحركون عليها ذهاباً وإياباً.

<sup>٢٨</sup> «عباب» من مادة «عب» بمعنى شرب الماء سريعاً دون ترويض، ومن هنا اطلق العباب على الماء الكثير والمطر الغزير والسيل العظيم، وهي هنا بمعنى تراكم المياه على بعضها.

<sup>٢٩</sup> «منفق» من مادة «ففق» على وزن فرق بمعنى المفتوح الواسع، ولذلك يصطلح بالمنفق على الجزء الواسع من الوادي والوعاء المملوء بالماء.

<sup>٣٠</sup> «سمك» بمعنى الارتفاع ولهذا يسمى السقف بالسمك لارتفاعه.

<sup>٣١</sup> «دسار» بمعنى المسمار والحبل الذي يربط به الشيء.



## دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة

للعلماء المعاصرين نظريات متعددة لا تتجاوز حدود الفرضيات بشأن خلق العالم؛ حيث لم يكن هناك مخلوق قبل مليارات السنين ليشهد كيفية ظهور العالم، مع ذلك هناك بعض الشواهد والقرائن التي تؤيد صحة بعض هذه الفرضيات.

أما العبارات التي ساقها الإمام (عليه السلام) فهي تنطبق تماماً على بعض الفرضيات المعروفة، سنتعرض لها الآن دون الاصرار على أنّ الإمام (عليه السلام) إنّما أراد هذه الفرضيات.

فكما أسلفنا في الأبحاث السابقة أن العالم كان في البداية كتلة ضخمة من الغازات المترابطة الكثيرة الشبه بالمائع بحيث يصح نعتها بالماء، كما يصح الاصطلاح عليها بالدخان على ضوء التصريحات القرآنية.

وقد سلط خالق العالم عليه قوتين عظيمتين، حيث عبر عنهما في العبارة المذكورة بالرياح قوة الجاذبية التي حفظته متماسكاً وحالة دون تشتته وزواله، والقوة الدافعة التي تدفعه إلى الخارج إثر الحركة الدورانية حول نفسه وبفعل قوة الطرد المركزية، وهذه هي الرياح والعاصفة الثانية. فإذا أقررنا بالحركة الدورانية للعالم الأول على أنها كانت متذبذبة تشد أحياناً وتخفّض أحياناً أخرى فمن الطبيعي أن تكون قد ظهرت تلك الأمواج العظيمة في تلك الكتلة الغازية العظيمة الشبيهة بالمائع بحيث تراكمت تلك الأمواج على الدوام ثم أخذت بالتساقط.

وفي الختام فإن الطبقات الأكثر خفة والأقل وزناً - والتي ورد التعبير عنها بالزبد من قبل الإمام (عليه السلام) - قد قذف بها نحو الفضاء الخارجي (أنّ مفردة «الزبد» تطلق على ما يطفو من الماء، وكذلك على الزبدة التي تطفو لختها على سطح محتويات القربة). وبهذا فقد اشتدت الحركة الدورانية، فانفصلت أجزاء كبيرة من هذه الكتلة العظيمة وانطلقت إلى الفضاء، فما كان منها أكثر شدة بلغ نقاطاً مرتفعة وأما ما كان منها أقل شدة فقد بلغ نقاطاً أوطئ.

لكن الأجزاء التي بلغت نقاطاً مرتفعة أصبحت على هيئة سقف محفوظ وذلك بفعل قوة الجاذبية التي لم تدعها تفلت تماماً، بينما أصبحت الأجزاء السفلى الأقل ضغطاً موجاً مكفوفاً حسب تعبير الإمام (عليه السلام).

ثم ظهرت في ذلك الفضاء المترامي السموات السبع دون أن تكون هناك عمد ترفعها ومسامير تنظمها وتحكم وثاقها، ولم تستقر في مواقعها وتترن في حركتها ضمن مداراتها سوى من خلال تعادل القوتين الجاذبة والدافعة. كان الفضاء آنذاك مملوءاً بالكرات الصغيرة والكبيرة، فانطلقت قطع متناثرة من هذه الأمواج إلى الخارج، وقد انجذبت القطع الصغيرة تدريجياً نحو الكرات الكبيرة بحكم الجاذبية فأصبح الفضاء وأضاءت النجوم وزينت بالكواكب وأشرفت الشمس واضيء القمر وأخذت الأجرام تتحرك ضمن أغلفتها ومداراتها.

لقد ورد في بعض الفرضيات بشأن ظهور العالم أنّ العامل الذي أدى إلى انفصال المنظومات والكرات السماوية عن الكتلة الأولى إنّما يعزى إلى الانفجار الداخلي العظيم والذي ظل سببه مجهولاً غامضاً لحد الآن. فالقوى الانفجارية المذكور بأجزاء عظيمة من الكتلة الغازية الأولى الشبيهة بالمائع إلى الفضاء وكون الكرات والمنظومات ولعل قوله (عليه السلام): «ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهيبها وأدام مربها وأعصف مجراها وأبعد منشأها فامرها بتصفيق الماء الزخار...» إشارة إلى هذا الانفجار العظيم الذي انطلق من أعماق المادة الأولى. لكن وكما قلنا

سابقاً فان الهدف من هذا الكلام هو إيضاح مدى انسجام عبارات الخطبة مع الفرضيات الواردة بشأن ظهور العالم ولا يمثل إصدار حكم بهذا الشأن أبداً<sup>٣٢</sup>.  
وسنورد فيما يأتي آخر الفرضيات والتجارب المعاصرة الخاصة بدراسة خلق الكون «تجربة محاكاة الانفجار الكوني الكبير».

قال العلماء في سويسرا إن جهاز "صادم الهدرون الكبير" المعروف اختصاراً بـ (LHC) نجح في إجراء أول تجربة رئيسية من خلال إطلاق أول شعاع من جسيمات تسمى البروتون على امتداد ٢٧ كيلومتراً وذلك في أكبر محاولة من نوعها لفهم كيفية نشوء الكون. ويوفر الجهاز الضخم، الذي كلف إنشاؤه في المنطقة الحدودية بين فرنسا وسويسرا نحو ١٠ مليارات دولار أمريكي، للعلماء قوة أكبر من ذي قبل لتهشيم مكونات الذرات في محاولة لرؤية ما يشكلها.

وتدير المنظمة الأوروبية للبحوث النووية المعروفة باختصارها الفرنسي سيرن جهاز الصادم.

وأعطى مدير المشروع، لين إيفانز، الأمر لإرسال البروتونات إلى جهاز التسريع الواقع تحت الحدود السويسرية الفرنسية.

وبعد سلسلة من التجارب، تمكنت البروتونات من قطع المسافة الكاملة الممتدة على طول جهاز (LHC).

ويأمل العلماء أن تكون التجربة بمثابة الخطوة الرئيسية باتجاه فهم كيفية نشوء الكون.

والتمعت نقطتان على شاشة أحد أجهزة الكمبيوتر، مشيرة إلى أن البروتونات وصلت إلى النقطة النهائية المحددة لها.

وانتظر نحو ٩ آلاف عالم فيزيائي في مناطق مختلفة من العالم بشغف انطلاق التجربة، ومن المقرر أن يشاركوا في تحليل المعطيات والبيانات المتأتية من التجربة على أمل معرفة أسرار مكونات الذرات من خلال تهشيمها. ويحاول العلماء محاكاة الظروف التي ارتبطت بنظرية الانفجار الكوني الكبير والتي يقول العلماء إنها قادت إلى نشوء الكون.

ومن المقرر في وقت لاحق إرسال البروتونات في اتجاه معاكس بهدف تهشيم الجسيمات بقوة جبارة. وعبر بعض منتقدي هذه التجربة عن خوفهم من أن تصادم البروتونات ببعضها بعضاً قد يحدث ثقباً أسود يؤدي إلى نهاية العالم، لكن علماء الفيزياء الذين أجروا التجربة رفضوا هذه المخاوف.

وتقول أستاذة الفيزياء الجزيئية في جامعة ليفربول، الدكتورة تارا شيرز «سوف نتمكن من إمعان النظر في المادة أكثر من قبل».

وأضافت «سوف ندرس مكونات الكون بعد حدوث الانفجار الكوني الكبير. إنه أمر مدهش.. إنه حقيقة رائع».

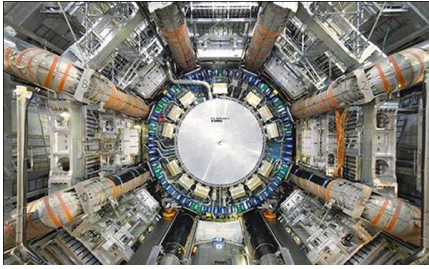
وقال جيم فيردي وهو عالم الفيزياء الجزيئية في كلية لندن الإمبراطورية «على جهاز الصادم الإجابة على سؤال بسيط جداً وهو ما هي الكتلة؟». وأضاف نعرف أن الجواب يمكن العثور عليه في جهاز الصادم.

وتشير أحدث الملاحظات الفلكية إلى أن المادة العادية مثل المجرات والغازات والنجوم والكواكب تشكل نسبة ٤ في المائة من مجموع الكون.

<sup>٣٢</sup> ينظر كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

أما بالنسبة إلى باقي أجزاء الكون فتتشكل من المادة السوداء بنسبة ٢٣ في المائة والطاقة السوداء بنسبة ٧٣ في المائة.

ويعتقد علماء الفيزياء أن جهاز الصادم يمكن أن يقدم المفاتيح لفهم طبيعة هذه المادة الغامضة. وتبلورت فكرة إنشاء صادم الهدرون الكبير في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، لكن لم يُعتمد المشروع سوى في عام ١٩٩٦ بميزانية مبدئية هي ١.٣ مليار دولار أمريكي.



جهاز «صادم الهدرون الكبير» \_ ٢٧ كيلومترا أجهزة كشف ضخمة تتولى تحليل البيانات المتأتية ويزن الجهاز ٤٠٠ طن من نتائج تصادم الجزيئات فيما بينه حقائق علمية معاصرة بشأن الانفجار الكوني- في عام ١٩٢٧ عرض العالم البلجيكي: «جورج لو ميتر» (George Le Maitre) نظرية الانفجار العظيم والتي تقول بأن الكون كان في بدء نشأته كتلة غازية عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، ثم بناتئير الضغط الهائل المتأتي من شدة حرارتها حدث انفجار عظيم فتق الكتلة الغازية وقذف بأجزائها في كل اتجاه، فتكونت مع مرور الوقت الكواكب والنجوم والمجرات.

-في عام ١٩٦٤ اكتشف العالمان «بانزياس» Penziaz و«ويلسون» Wilson موجات راديو منبعثة من جميع أرجاء الكون لها نفس الميزات الفيزيائية في أي مكان سجلت فيه، سُميت بالنور المتحجر وهو النور الآتي من الأزمنة السحيقة ومن بقايا الانفجار العظيم الذي حصل في الثواني التي تلت نشأة الكون.

-في سنة ١٩٨٩ أرسلت وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» (NASA) قمرها الاصطناعي Cobe explorer والذي أرسل بعد ثلاث سنوات معلومات دقيقة تؤكد نظرية الانفجار العظيم وما التقطه كل من بنزياس وويلسون.

ولقد سمى بعض العلماء هذه النظرية بالانفجار العظيم "Big Bang" وبحسب علماء الفيزياء الفلكية اليوم فإن الكون بعد جزء من المليارات المليارات من الثانية (١٠ - ٤٣)، ومنذ حوالي خمسة عشر مليار سنة تقريباً كان كتلة هائلة شديدة الحرارة بحجم كرة لا يبلغ قطرها جزءاً من الألف من السنتيمتر.

### نبذة تاريخية:

في عام ١٨٤٠ أيد عالم الفلك الأمريكي (من أصل روسي) جورج غاموف (George Gamov) نظرية الانفجار العظيم "Big Bang":، مما مهد الطريق لكل من العالمين «بانزياس» Penziaz و«ويلسون» Wilson سنة ١٩٦٤ اللذين التقطوا موجات راديو

منبعثة من جميع أرجاء الكون لها نفس الخصائص الفيزيائية في أي مكان سجلت فيه، لا تتغير مع الزمن أو الاتجاه، فسميت «النور المتحرّج» أي النور الآتي من الأزمنة السحيقة وهو من بقايا الانفجار العظيم الذي حصل في الثواني التي تلت نشأة الكون. وقد ذكرت الموسوعة البريطانية انه في عام ١٩٦٣، كلفت مختبرات «Bell» العالمان أرنو بنزياس و روبرت ويلسون باتباع أثر موجات الراديو التي تشوش على تقدم اتصالات الأقمار الاصطناعية. اكتشف العالمان «بنزياس» و «ويلسون» أنه كيفما كان اتجاه محطة البث فإنه يلتقط دائماً موجات ذات طاقة مشوشة خفيفة، حتى ولو كانت السماء صافية، أسهل حل كان إعادة النظر في تصميم اللاقطات لتصفية الموجات من التشويش، ولكنهما ظلوا ينتبعون أثر هذه الموجات المشوشة، فكان اكتشافهم المهم للموجات الفضائية التي أثبتت نظرية الانفجار العظيم.

### كيفية ظهور العالم<sup>٣٣</sup>

تعد مسألة كيفية ظهور العالم من أعقد المسائل التي واجهها العلماء والمفكرون. فالمسألة المذكورة تعود إلى ما قبل مليارات السنوات، ولعلها القضية التي لم تطرق فكر أحد؛ الأمر الذي حير كبار العلماء والمفكرين رغم الجهود المفنية والتحقيقات والفرضيات الضخمة التي توصلوا إليها في هذا المجال وبالتالي لم يكن أمامهم سوى الاعتراف بالعجز عن سير تحور هذه المسألة.

إلا أنّ روح حب الاستطلاع والتعرف على المجهول التي تسود الفكر البشري لم تدعه يقف مكتوف الأيدي حيال هذه القضية والصمت إزائها.

فالواقع أنّ لسان حال العلماء هو إننا وإن عجزنا عن بلوغ كنه هذا الموضوع، غير أننا نرغب برسم صورة في أذهاننا من شأنها إشباع حب تطلعنا واقتحامنا لهذا الأمر.

وبالطبع فإنّ الآيات القرآنية والروايات الإسلامية قد اكتفت بإشارات مقتضبة بالنسبة لهذا الموضوع؛ الأمر الذي لا يؤدي إلا إلى رسم صورة باهتة في الذهن لا ترقى إلى إمطة اللثام عن طبيعتها وكنه حقيقتها.

على كل حال فإن العبارات الواردة في هذه الخطبة إنما تتناغم وما ورد في خطبته حيث قال فيها (عليه السلام) : «وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سموات، بعد ارتناقها». من جانب آخر فقد شحنت الروايات الإسلامية بعدة أبحاث بهذا الشأن، والواضح أنّ أغلب هذه الروايات تتسجم وخطب نهج البلاغة الواردة بهذا الخصوص مع فارق جاء في أغلبها وهو تصريحها بأنّ الزبد أول شيء ظهر على الماء ثم انبعث منه البخار أو الدخان الذي كوّن السموات.<sup>٣٤</sup>

ولكن وكما أوردنا آنفاً فإنه ليس هنالك من تضارب بين هذه العبارات، لأنّ المادة الأولى على الأقوى كانت عبارة عن غازات مائعة مضغوطة يصدق عليها وصف الماء والبخار والدخان بالنظر لمراحلها المختلفة. والجدير بالذكر هنا هو أنه ليس هناك من تضاد بين الروايات التي صرّحت بأنّ أول ما خلق الله الماء، أو الشيء الأول الذي خلقه الله كان نور

<sup>٣٣</sup> ينظر كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

<sup>٣٤</sup> للوقوف على هذه الروايات، انظر ٣ / ١٠ و ٥٧ من بحار الأنوار، طبعة بيروت. وردت أغلب الأحاديث في ج ٥٧.

النبي(صلى الله عليه وآله) أو العقل؛ وذلك لأنّ بعض الروايات تحدّثت عن خلق عالم المادة بينما تحدّث البعض الآخر عن خلق عالم المجردات والأرواح. كما يتبيّن عدم وجود التناقض بين ما أورده من مضامين الروايات وما صرّحت به الآية ١١ من سورة فصلت التي قالت: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ».

### ما المراد بالسموات السبع؟<sup>٣٥</sup>

لم يقتصر الحديث عن السموات السبع على نهج البلاغة - في هذه الخطبة والخطبة ٢١١ - فحسب بل سبقه القرآن الكريم للحديث عن هذا الموضوع<sup>٣٦</sup>. وهناك عدّة تفاسير أوردها العلماء القدماء بشأن السموات السبع، ولا نزوح الخوض فيها جميعاً؛ إلا أن التفسير الوحيد الذي يبدو صحيحاً من بينها هو ذلك الذي قال بأنّ المراد بالسموات السبع هو المعنى الواقعي لهذه الكلمة؛ فالسماء هي مجموعة من الكواكب والنجوم في العالم العلوي، والسبع هو العدد سبعة المعروف ولا يراد به الكثرة، غاية مافي الأمر أنّ الذي نفهمه من الآيات القرآنية هو أن ما نشاهده من كواكب وسيارات ثابتة ومتحركة كلها مرتبطة بالسماء الأولى.

وبناءً على هذا فإن وراء هذه السماء العظيمة ستة سموات عظيمة آخر لم يتسنّى لحد الآن للعلم البشري التوصل إلى معرفتها.

والآية السادسة من سورة الصافات تؤيد هذا المعنى: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)، كما ورد هذا المعنى في الآية ١٢ من سورة فصلت (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ)، وجاء في الآية الخامسة من سورة الملك (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ).

وهنا لا بدّ من القول بأنّ الأجهزة العلمية لم تتمكن حتى اليوم من إماطة اللثام عن هذه العوالم الست، إلا أنّ الدليل لم يقم على نفيها علمياً، ولعل العلم يكشف أسرار هذا الموضوع مستقبلاً، بل أفادت كشوف العلماء الفلكيين أنّ هناك أسباحاً ترى من بعيد تفيد وجود عوالم أخرى، على سبيل المثال أوردت بعض المجالات الفضائية نقلاً عن المرصد الجوية المعروفة «بالومار» قولها: لقد تمكن ناظور مرصد بالومار من كشف ملايين المجرات التي يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية.

لكن هناك فضاء عظيم ومهيب مظلم بعد تلك المسافة البالغة ألف مليون سنة ضوئية، غير أنّه يتعذر رؤية مافيه من أشياء. ومما لاشك فيه أنّ ذلك الفضاء المهيب والمظلم يضم مئات الملايين من المجرات بحيث تكفلت جاذبيتها بحفظ البسيطة التي نعيش على وجهها.

وما هذه الدنيا العظيمة التي تغص بمئات آلاف الملايين من المجرات إلا ذرة تافهة لا قيمة لها مقارنة بدنيا أعظم وأوسع ولسنا متأكدين لحد الآن من وجود دنيا أخرى عظيمة فيما وراء هذه الدنيا ونخلص ممّا سبق إلى أنّ العوالم التي تمّ كشفها من قبل البشرية ورغم عظمتها وما

٣٥ - ينظر كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

٣٦ - الطريف أنّ القرآن أشار إلى السموات السبع في سبع من آياته، وهي الآية ٢٩ من سورة البقرة، ٤٤ من سورة الإسراء، الآية ٨٦ من سورة المؤمنون، الآية ١٢ من سورة فصلت، الآية ١٢ من سورة الطلاق، الآية ٣ من سورة الملك والآية ١٥ من سورة نوح. كما وردت بعض الآيات التي أشارت بعبارات أخرى إلى هذا الأمر.

تتطوي عليه من أسرار وأعاجيب ليست إلا جزءاً ضئيلاً من عالم ضخم عملاق، ولعل المستقبل سيكشف النقاب عن العوالم الست الأخرى.

## خلق آدم (عليه السلام)

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلَيْهَا، وَعَدْبِهَا وَسَبَخِهَا، ثُرْبَةَ سَنِّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَاطُهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزِبَتْ فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةَ ذَاتِ أَعْضَاءٍ وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ، أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلَّصَلَتْ لَوْقَتِ مَعْدُودٍ، وَأَمَدَ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، فَمَثَلَتْ إِنْسَانًا ذَا أَدْهَانَ يُحْيِلُهَا، وَفَكَرَ يَنْصَرِفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا وَأَدْوَاتَ يُقَلِّبُهَا وَمَعْرِفَةً يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْأَدْوِقِ وَالْمَشَامِ وَالْأَلْوَانَ وَالْأَجْنَاسَ، مَعْجُونًا بَطِينَةَ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ».

يتناول الامام (عليه السلام) خلق آدم ومراحله المختلفة والتي قسمها (عليه السلام) إلى خمس مراحل<sup>٣٧</sup> تكتنف تمام مسيرة حياته وهي:

- ١ - خلقة آدم من ناحية الجسم والروح (يعني في مرحلتين).
- ٢ - سجود الملائكة لآدم وتمرد ابليس.
- ٣ - إسكان آدم الجنة ثم بيان ترك الاولى الذي صدر من آدم (عليه السلام) وندمه وتوبته وأخيراً قبول توبته وإخراجه من الجنة والهبوط إلى الأرض.
- ٤ - لقد أصبح لآدم ذرية ثم تكاثرت هذه الذرية فكونت المجتمعات البشرية ثم بعث الله أنبيائه (عليهم السلام) يكتبه السماوية المقدسة من أجل هداية الناس وتنظيم شؤون المجتمعات البشرية والأخذ بأيديها إلى حيث السمو الروحي والرفعة والكمال.
- ٥ - المجتمعات البشرية من جانبها خطت خطوات عريضة نحو التكامل حتى تأهلت لتقبل الدين الخاتم حيث اصطفى الله رسوله محمد (صلى الله عليه وآله) فبعثه بالقرآن الكريم لهداية الإنسانية وإنقاذها من خلال أطروحته التي تتضمن السعادة والفلاح.

## خلقة آدم (عليه السلام) من الناحية الجسمية والروحية

قال الإمام (عليه السلام) بشأن خلق جسم آدم (عليه السلام) : «ثم جمع سبحانه من حزن<sup>٣٨</sup> الأرض وسهلها وعدبها<sup>٣٩</sup> وسبخها<sup>٤٠</sup> تربة».

فالعبارة تشير إلى خلق الإنسان من التراب من جهة، كما تشير من جهة أخرى أن ذلك التراب مركب من جميع المواد المختلفة على وجه الأرض لتتطوي على مختلف الاستعدادات وتشمل التنوعات والتقلبات التي تحتاجها المجتمعات البشرية في مختلف

<sup>٣٧</sup> يقول الشيخ محمد جواد مغنية في ظل نهج البلاغة "خلق الله سبحانه آدم من جسم و روح ، و لكن بالترديد لا دفعة واحدة!"

<sup>٣٨</sup> «حزن» على وزن «وزن» بمعنى المواضع الوعرة على الأرض، كما يطلق الحزن أو الحزن على الهم والغم، لأنه نوع وعورة في روح الإنسان.

<sup>٣٩</sup> «عذب» على وزن «جذب» بمعنى الماء الطاهر والحلو الصالح للشرب.

<sup>٤٠</sup> «سبخ» وجمعها سبخا بمعنى ما ملح من الأرض.

مجالات حياتها، ثم أشارت إلى مادة أخرى هي الماء والتي اختلطت بالتراب فقال(عليه السلام) بهذا الشأن «سناها»<sup>٤١</sup> بالماء حتى خلصت ولاطها<sup>٤٢</sup> بالبلبة حتى لزبت<sup>٤٣</sup>». فالواقع أن دور الماء هو خلط تلك الأجزاء المختلفة مع بعضها وتخليصها من شوائبها وارساء الوشيجة والرابطة بين هذه الأجزاء.

ثم أشار(عليه السلام) إلى مسألة تبلور خلقة الإنسان من ذلك التراب والطين فقال(عليه السلام): «فجبل منها صورة ذات أحناء»<sup>٤٤</sup> ووصول وأعضاء وفصول».

في الواقع «أحناء» جمع «حنو» إشارة إلى انحناءات البدن من قبيل انحناء الأضلاع والفك العلوي والسفلي وراحة القدم بحيث يتكيف البدن للقيام بمختلف الأعمال والفعاليات، وذلك لتعذر قيامه بمثل هذه الأفعال التي يمارسها اليوم لو كان البدن على هيئة جسم هندسي مكعب أو ما شابه ذلك.

أما العبارة «وأعضاء وفصول» فهي تشير إلى الأعضاء المختلفة التي ترتبط مع بعضها من خلال المفصلات؛ الأمر الذي أكسب البدن القدرة العملية على ممارسة مختلف الأنشطة فلو كانت يد الإنسان على سبيل المثال مستوية ذات عضو واحد وعظم واحد لا تقوى على أداء الفعاليات التي تؤديها الآن، بينما نعلم أن البارئ سبحانه جعلها عدة عظام وغضاريف وعدة أعضاء متصلة مع بعضها البعض الآخر؛ الأمر الذي جعل كل اصبع بل كل سلامية من أصابعه وازدادة لليد تتمتع بعملية خاصة وهذه بدورها تعد آية من آيات حكمته وعظمته سبحانه.

ثم أشار الإمام (عليه السلام) إلى مرحلة لاحقة فقال: «اجمدها حتى استمسكت واصلدها»<sup>٤٥</sup> حتى صلصلت<sup>٤٦</sup>» وبذلك فقد أعد الإنسان إعداداً تاماً من الناحية البدنية بحيث يسير إلى الغاية المعينة المرسومة له «لوقت معدود وأجل معلوم»<sup>٤٧</sup>.

فقد روي في بعض الروايات عن الإمام الباقر(عليه السلام) أن هذه الحالة دامت أربعين سنة، فكان جسد آدم ملقى في موضع والملائكة تمر به وتقول لأي أمر خلقت؟<sup>٤٨</sup> ولعل هذه المدة الزمانية - كما صرح بذلك بعض المحققين - كانت اختباراً للملائكة أو إرشاداً وتعليماً للناس بالتأني في الأمور وعدم الاستعجال فيها.

وهنا جاءت المرحلة الثانية؛ مرحلة نفخ الروح في الجسد ليتحول إلى هذه الطبيعة الإنسانية التي زود فيها الإنسان بقوى العقل والإدراك التي تسوقه لممارسة الأعمال: «ثم نفخ فيها من روحه فمثلت»<sup>٤٩</sup> إنساناً ذا أذهان يجيئها»<sup>٥٠</sup>.

<sup>٤١</sup> «سن» من مادة «سن» على وزن ظن بمعنى صب الماء على شيء، كما تأتي بمعنى نعمة الشيء.

<sup>٤٢</sup> «لاط» من مادة «لوط» على وزن صوت بمعنى خلط الشيء وعجنه.

<sup>٤٣</sup> «لزبت» من مادة «لزوب» على وزن سكوت بمعنى التصق وثبت واشتد.

<sup>٤٤</sup> «أحناء» جمع «حنو» على وزن حرص بمعنى الانحناء والجوانب والأطراف.

<sup>٤٥</sup> «أصلد» من مادة «صلد» على وزن صبر بمعنى أحكم وجعل الشيء صلباً أصلاً.

<sup>٤٦</sup> «صلصل» من مادة «صلصلة» بمعنى اليبوسة والجفاف بحيث تخرج منها الأصوات بمجرد ملامستها لشيء، كما وردت بمعنى الجاف والمحكم.

<sup>٤٧</sup> اللام في «لوقت معدود» بمعنى إلى. ذهب البعض إلى أنها لام التعليل، بينما احتمل البعض أن المراد بهذه العبارة هو أن هذا الوضع سيستمر إلى قيام الساعة ثم تنتفك بعد ذلك أعضاء البدن تماماً، إلا أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً للغاية، لأنه من المراحل المختلفة لخلق الإنسان ولم تطرح لحد الآن قضية نفخ الروح.

<sup>٤٨</sup> «فيقي أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة فتقول لأمر ما خلقت؟». منهاج البراعة ٢ / ٤٤.

<sup>٤٩</sup> «مثلت» من مادة «مثل» على وزن حصول بمعنى استوت وقامت.

<sup>٥٠</sup> «يجيئ» من مادة «اجالة» (مصدر باب أفعال من جول وجولان بمعنى يدور).

العبارة «ذا أذهان يجيلها» إشارة إلى مختلف القوى العقلية والذهنية التي زود بها الإنسان ويوظف كلاً منها في مجال من مجالات حياته بحيث يلائم بينها جميعاً في مسيرته نحو الهدف المنشود (والقوى المذكورة عبارة عن قوة الإدراك وقوة الحفظ وقوة الخيال...).

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الذهن في الأصل يعني القوة، ثم استعمل بمعنى العقل والفهم والدراية وسائر القوى العقلانية، فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام (عليه السلام) قد عنى مختلف هذه القوى معتبراً كل واحدة منها نعمة وعناية من العنايةات الإلهية ثم قال (عليه السلام): «وفكر يتصرف بها».

قد يتصور أحياناً أنّ هذا التعبير من قبيل العطف التفسيري والتعبير الآخر لمفهوم العبارة السابقة، غير أنّ الظاهر هو أنّ كل عبارة من العبارتين تشير إلى حقيقة: فالعبارة «ذا أذهان يجيلها» إشارة إلى مراحل المعرفة والتصور والتصديق وفهم وإدراك الحقائق، وأمّا العبارة «وفكر يتصرف بها» فهي إشارة إلى الأفكار التي تخضع لمرحلة التطبيق ويتصرف الإنسان بواسطتها في مختلف الأشياء (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الفكر في الأصل يعني الحركة الفكرية وتوظيف الذهن).

على كل حال فقد جاءت مفردة «فكر» بصيغة الجمع (كالأذهان بصيغة الجمع) لتفيدان القوى العقلية والأفكار الإنسانية كثيرة للغاية ومتنوعة، وهذه نقطة مهمّة أكدها كبار الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس، وإليها تعزى الفوارق في الاستعدادات الفكرية لأفراد البشرية.

فربما كان هناك الأفراد الأقوى في قسم منها وأضعف في القسم الآخر بينما هنالك العكس، فالمسألة تنطوي على أسرار ورموز عجيبة للغاية، وكلما غاص الإنسان في كنهها تعرف أكثر على عظمة الحق خالق هذه القوى الذهنية والفكرية.

ثم يتطرق (عليه السلام) بعد ذلك إلى شيئين يسهمان في إيصال الإنسان إلى هدفه المطلوب وهما الجوارح والأدوات التي زوده بها الله سبحانه ليتسنى له تحقيق ما يصبو إليه «وجوارح يخدمها<sup>٥١</sup> وأدوات يقلبها».

فالواقع هو أنّه يجتاز أربع مراحل لبلوغ الهدف: تمثلت المرحلة الأولى بالمعرفة والإدراك والتصور والتصديق ومرحلة الفكر ومن ثم انتماء الأعضاء والجوارح، وأخيراً الاستعانة بالأدوات المختلفة التي خلقها الله في هذا العالم حين لا تجدي الأعضاء والجوارح بمفردها نفعاً، كما أنّ كل مرحلة من هذه المراحل الأربع متنوعة تتفرع منها عدّة فروع.

ولما كان بلوغ الأهداف المرسومة يتطلب تشخيصاً وتمييزاً للحق من الباطل والصواب من عدمه وكافة المحسوسات المختلفة، فانه يتحدث عن إحدى قوى النفس المهمّة والتي تعتبر في الواقع المرحلة الخامسة، ألا وهي قوة التمييز ولا يراد بها سوى المعرفة «ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل». كما يتمكن بواسطة هذه القوة من تمييز المحسوسات من قبيل الأطعمة والأذواق... «والأذواق والمشام والألوان والأجناس»<sup>٥٢</sup>.

والواقع أنّ قدرة التمييز والتشخيص والمعرفة لمن أهم قوى الإنسان العقلية التي تشمل الأمور المعنوية كالحق والباطل كما تشمل الأمور المادية المحسوسة كالألوان والمشام والأذواق.

<sup>٥١</sup> «يخدمها» من مادة «اختدام» بمعنى الاستخدام.

<sup>٥٢</sup> أنّ العبارة «والأذواق والمشام والألوان والأجناس» هي عطف على عبارة الحق والباطل، بينما عدها البعض عطفاً على المعرفة. في حين يفيد التأمل في كلامه (عليه السلام) أنّ المعنى الأول هو الأنسب.



فهل قوّة التمييز هذه هي قوة مستقلة، أم داخلية في مفهوم الذهن والفكر في العبارة السابقة؟ يبدو من كلامه(عليه السلام) أنّها قوّة مستقلة، جدير بالذكر أنّ الحديث تطرق لأربعة أصناف من الأمور المادية والمحسوسة وهي: الأذواق، المشام، الألوان والأجناس التي تشير هنا إلى مختلف أنواع الموجودات<sup>٥٣</sup>.

من قبيل مختلف أنواع النباتات، الطيور والحيوانات وما إلى ذلك، إما عدم الإشارة إلى المسموعات (الأصوات) والملموسات فلأن بيان الأقسام الثلاث كان على نحو المثال، فذهن كل مستمع سينتقل إلى بقية ذلك من خلال الأقسام الثلاث المذكورة.

ثم ينتقل الإمام(عليه السلام) ليشير إلى أهمّ خصائص الإنسان التي تشكل المصدر الرئيسي لأغلب ظواهر حياته فيقول: «معجوناً بطينة الألوان المختلفة».

ولعل هذه العبارة إشارة إلى اختلاف ألوان الناس وأعراقهم المتفاوتة، أو اختلاف لون أجزاء البدن حيث إنّ بعضها تام البياض (كبياض العين والعظام) والآخر تام السواد (كالشعر) وسائر الألوان التي يكسبه خلطها جمالاً خاصاً، كما يمكن أن يكون المراد بها معنى أوسع بحيث يشمل سائر الاستعدادات والغرائز المختلفة.

ثم أضاف الإمام(عليه السلام) قائلاً: «والأشباه المؤتلفة» من قبيل الأوردة والشرايين والأعصاب والعظام التي تشبه إلى حدّ بعيد بعضها البعض الآخر، وفي نفس الوقت تقوم بعدة وظائف ومهام.

وأخيراً قال(عليه السلام): «والأضداد المتعادية والأخلاق المتباينة من الحر والبرد والبلية والجمود»<sup>٥٤</sup>.

والعبارة إشارة إلى الطبائع الرباعية المعروفة في الطب التقليدي، والأطباء المعاصرون وأن تنكروا لهذه الطبائع لفظاً، غير أنّهم اوردوها بتعابير أخرى من قبيل الاستعاضة عن الحرارة والبرودة بارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، كما يصطلحون بزيادة ماء الجسم وقلته بدلاً من البلية والجمود.

على كل حال فإن عبارات الإمام(عليه السلام) أنفة الذكر إنّما تشير إلى قضية مهمّة في أنّ الله سبحانه قد خلق جسم الإنسان (بل جسمه وروحه) مركباً من مواد مختلفة وكيفيات متنوعة واستعدادات وغرائز متباينة، وأنّ هذه الفوارق والتباينات شكلت أساس التقاوت في أساليب التفكير لدى أفراد الجنس البشري؛ الأمر الذي أدى في خاتمة المطاف إلى تلبية مختلف حاجات الجماعات البشرية واشغال المناصب الاجتماعية على ضوء تلك الاستعدادات بحيث تنتظم الأمور ويوضع كل شيء في موضعه فيتنسق النظام العام.

#### سؤال:

لماذا لم يخلق الله آدم بكلمة «كن» ؟

وما هي الحكمة لخلقه من تراب ؟ أليس الله على كل شيء بقدير ؟

#### الجواب:

قال البعض: أراد سبحانه أن يعلم الناس الروية والأناة و عدم الاستعجال في أمورهم. وقال آخر انه تعالى أراد أن يعلم الناس انهم في الخلق سواء، لا فضل لأبيض على أسود، كما قال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله): كلّم من آدم، و آدم من تراب ..و ان يعتبروا بقدرة

<sup>٥٣</sup> «الجنس» في اللغة بمعنى الأقسام والأنواع المختلفة، وهناك القرائن الواردة في خطب نهج البلاغة التي تدل على هذا المعنى.

<sup>٥٤</sup> يمكن أن تكون جملة «من الحر والبرد» بياناً للأخلاق المتباينة، أو للأضداد والأخلاق معاً.

الله التي خلقت من المادة الصماء إنسانا عاقلا يفعل الأعاجيب و أيضا أن يستدل الانسان على النشأة الثانية بالأولى قال الإمام: «عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى، و هو يرى النشأة الأولى» وعلى أية حال فإن الأرض هي البيئة الطبيعية للإنسان، و مصدر حياته و حضارته و فيها يتعرف على خالقه و يعبده، و منها يثب الى السماء و الكواكب، وإليها يعودوا لا غنى له عنها بحال حدوثا و بقاء، وهي في غنى عنه في كل الأحوال.

## نظرية التطور والنشوء

نفهم من العبارات التي تضمنتها خطبة الإمام(عليه السلام) أن خلق آدم(عليه السلام) قد تمّ بصورة مستقلة متكاملة على هذه الصورة التي نحن عليها اليوم دون أن يطوي مراحل النشوء والارتقاء من الكائنات الحية المتسافلة؛ الأمر الذي أكده القرآن كرارا على لسان آياته الشريفة. طبعاً كلنا نعلم بأن «القرآن الكريم» وكذلك «نهج البلاغة» ليسا من قبيل كتب العلوم الطبيعية، بل هما كتابان تكفلا بهداية الإنسان وتهذيبه بالدرجة الأساس إلى جانب الإشارة حسب المقام وما يتناسب وأبحاثه العقائدية والتربوية إلى بعض مسائل العلوم الطبيعية. أما النظرية السائدة اليوم في الأوساط العلمية بشأن خلق الإنسان فهي نظرية «تكامل الأنواع». أو نظرية التطور

التطور: هي عملية أدت لظهور جماعات المتعضيات الحية، بشكل عام يؤدي التطور لظهور (فروع صغير) خلل جديدة ومتجددة من جيل لآخر، تؤدي في النهاية إلى تغيير كافة مواصفات النوع قيد التطور مما يؤدي إلى نشوء نوع جديد من الكائنات الحية. مصطلح نشوء عضوي organic evolution أو النشوء البيولوجي يستخدم غالبا لتفريق هذا المصطلح عن استعمالات أخرى.

بدأ تطور نظرية التطور الحديثة بإدخال مصطلح الاصطفاء الطبيعي في مقالة مشتركة لتشارلز داروين وألفريد راسل والاس.

من ثم حققت النظرية شعبية واسعة بعد الإقبال على قراءة كتاب داروين أصل الأنواع. كانت نظرية داروين [ووالاس](#) الأساسية ان التطور يحدث وفق ميزة قابلة للتوريث تؤدي إلى زيادة فرصة بعض الأفراد الحاملين لهذه الميزة trait بالتكاثر أكثر من الأفراد الذين لا يحملونها.

هذه النظرية كانت جديدة تماما ومخالفة لمعظم أسس النظريات التطورية القديمة خصوصا النظرية المطورة من قبل جان باتيست لامارك.

حسب نظرية داروين ووالاس: يحدث التطور نتيجة تغير أو [طفرة](#) في [ميزات قابلة للتوريث](#) ضمن [مجموعة حيوية](#) على امتداد أجيال متعاقبة، كما يحدده التغيرات في التكرارات الأليلية [الجينات](#).

ومع الوقت، يمكن أن تنتج هذه العملية ما نسميه انتواعاً، أي تطور [نوع](#) جديد من الأحياء بدءاً من نوع موجود أساساً بالنسبة لهذه النظرية فإن جميع المتعضيات الموجودة ترتبط ببعضها البعض من خلال [سلف مشترك](#)، كنتيجة لتراكمات التغيرات التطورية عبر ملايين السنين.

التطور أيضاً مصدر [للتنوع الحيوي](#) على كوكب [الأرض](#)، بما فيها [الأنواع المنقرضة](#) المسجلة ضمن السجل الأحفوري أو المستحاثي.

الآلية (الحيئات) الأساسية التي ينتج بها التغيير التطوري هي ما تدعوه النظرية: الإصطفاء الطبيعي (selection natural) (الذي يتضمن البيئي والجنسي والقرابة مع الانحراف الوراثي). تقوم هاتان العمليتان أو الآليتان بالتأثير على التنوع الجيني المتشكل عن طريق الطفرات، وانسياب المورثات. لذا يعتبر الإصطفاء الطبيعي عملية يتم بها بقاء ونجاة الأفراد ذوي الميزات الأفضل (للحياة) وبالتالي التكاثر.

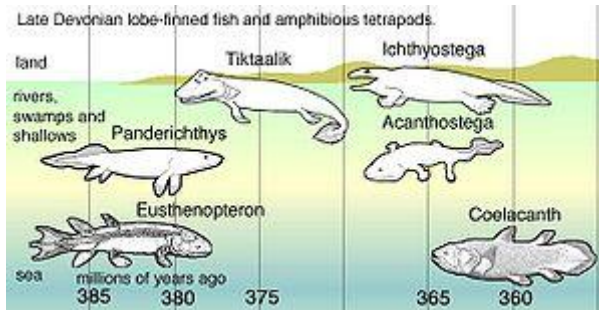
إذا كانت هذه الميزات قابلة للتوريث فإنها ستنقل إلى الأجيال اللاحقة، مما ينتج ان الميزات الأكثر نفعاً وصلاحية للبقاء تصبح أكثر شيوعاً في الأجيال اللاحقة. فبإعطاء وقت كاف، يمكن أن تنتج هذه العملية العفوية تلاؤمات متنوعة نحو تغيرات الشروط البيئية.

الفهم الحديث للتطور يعتمد على نظرية الإصطفاء الطبيعي، التي وضعت أسسها أساساً في ورقة مفصلة عام ١٨٥٨ من قبل تشارلز داروين وألفرد راسل والاس ونشرت ضمن كتاب داروين الشهير أصل الأنواع. في الثلاثينات من القرن العشرين، تراقق الإصطفاء الطبيعي الدارويني مع نظرية الوراثة المنديلية لتشكل ما يدعى الإصطناع التطوري الحديث، وعرفت أيضاً بالداروينية-الجديدة.

الإصطناع الحديث يصف التطور كتغير في تكرار وتوافر الأليلات ضمن مجموعة حيوية من جيل إلى الجيل الذي يليه.

هذه النظرية سرعان ما أصبحت المبدأ المركزي المنظم للحياة الحديثة، نسبة لقدرتها التفسيرية والتنبؤية العالية، تربط حالياً بشكل مباشر مع دراسة أصل مقاومة المضادات الحيوية في الجراثيم، (eusociality) في الحشرات، والتنوع في النظام البيئي (ecosystem).

إثباتات التطور



in context: one of many species that track the evolutionary Tiktaalik .fins into tetrapod limbs development of fish

يقول العلماء أن التطور قد خلف وراءه العديد من السجلات التي تروي تاريخ الأنواع المختلفة وزمن نشوئها. الأحافير بمجموعها مع التشريح المقارن للنباتات والحيوانات الموجودة حالياً، تشكل سجلاً تشريحيًا ومورفولوجيًا. وبالمقارنة التشريحية والشكلية بين الأنواع الحالية والأنواع المنقرضة يمكن لعلماء المستحاثات ان يقوموا بمعرفة الارتباطات والأصول المشتركة بين هذه الأنواع.

تقوم بعض المستحاثات المهمة بإثبات الصلة بين أنواع منقرضة وأنواع موجودة حالياً عن طريق ما يدعى أنواع «انتقالية»، مثال هذه الأنواع الانتقالية أرخايبتركس الذي أثبت

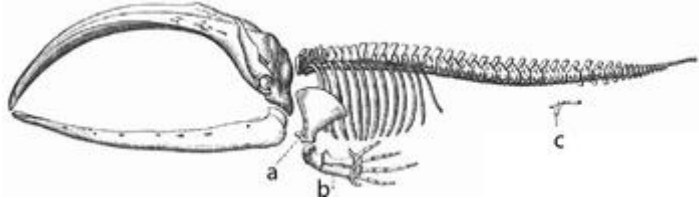
العلاقة بين الديناصورات والطيور لاحقاً سمح تطور علم الوراثة الجزيئي وخصوصاً إمكانية سلسلة الدنا DNA، للبيولوجيين بدراسة سجل التطور عن طريق البنى الوراثة للمتعضيات الحالية والمنقرضة، مما وسع بشكل كبير وعدل من إمكانية إيجاد الصلات والقرابات بين الأنواع وأحيانا كان يؤدي لتعديلات جذرية في التصنيف الحيوي للأحياء. عن طريق التشابه والاختلاف بين تسلسلات الدنا DNA للمتعضيات الحية يقوم علماء الحياة حالياً بإيجاد وتعديل العلاقات وصلات القرابة بين الأنواع الحية قديمها وجديدها.

تم جمع إثباتات أخرى من بعض البنى التشريحية الموجودة في بعض الكائنات الحية كما عند الباندا أو شكل الأقدام عند السحالي أو انعدام العيون عند الأسماك الكهفية، مما قدم إثباتات لإمكانية التنامي التطوري.

تقدم دراسات أخرى إثباتات عن طريق تمثيل صلات تطورية تتضمن التوزع الجغرافي للأنواع.

مثلاً: أحاديات الفتحة Monotreme، مثل platypus ومعظم الجرابيات marsupials مثل الكنغر والكوالا وجدوا فقط في أستراليا وضحوا أن سلفهم المشترك مع الثدييات المشيمية placental mammals عاش قبل غمر الجسر الأرضي القديم بين أستراليا وآسيا. جميع هذه الإثباتات من علم الإحاثة، التشريح، علم الوراثة، والجغرافيا، إضافة لمعلومات أخرى حول تاريخ الأرض قام العلماء بربطها سوية ضمن إطار تقدم نظرية التطور من خلاله وتجعلها نظرية علمية متماسكة. فمثلاً علم المناخ الإحاثي paleoclimatology يشير إلى العصر الجليدي الدوري الذي كان فيه مناخ الأرض أكثر برودة، مما أدى لنشوء وانتشار أنواع حية قادرة على تحمل البرد القارس ومن أهم هذه الأنواع الماموث woolly mammoth.

### \* المورفولوجية



baleen legs of a in the picture indicates the undeveloped hind c Letter remnants of its terrestrial ancestors vestigial، whale

غالباً ما تعتبر المستحاثات (المستحاثات: هي آثار وبقايا كائنات حية عاشت في الأزمنة الجيولوجية القديمة، بعضها إنقرض و بعضها ما زال يعيش حالياً. هذه الآثار حفظت في الصخور الرسوبية و تتم الإستحاثاة في المراحل التالية:

تسقط جثث الحيوانات في أوساط الترسيب المائية مثل البحار تطمر في الرواسب بسرعة، تتحلل أعضائها الرخوة بينما الأجزاء الصلبة مثل العظام والصدفات تقاوم التحلل و تترك بصمات على شكل قوالب في الرواسب، تتصخر ثم تتمعدن أثناء عملية التصخر) إثباتات حرجة لتقييم عمق الصلات بين الأنواع.

بما أن استحاتة متعضية يعتبر أمرا نادر الحدوث، يحدث غالبا بوجود أجزاء صلبة مثل الأسنان والعظام، لذلك فإن المستحاتات غالبا ما تعتبر بأنها تقدم معلومات ضئيلة أو متوسطة الأهمية حول علاقات القرابة بين الأنواع.

مع هذا فيمكن حدوث استحاتة لبعض النواع بدون أجزاء صلبة (أسنان، عظام) في بعض الظروف: **rapid burial**، بيئات منخفضة الأكسجين، أو تأثير ميكروبيولوجي. تؤمن السجلات الأحفورية أنماطا متعددة من البيانات المهمة لدراسة التطور.

أولا: يحوي السجل الأحفوري الأمثلة المعروفة المبكرة للحياة، إضافة لحدوث أولى حالات القرابة الفردية بين الأنواع. فمثلا حسب السجل الأحفوري ظهر أول حيوانات معقدة في عصر **الكمبري المبكر**، أي حوالي ٥٢٠ مليون سنة مضت.

ثانيا: سجلات الأنواع المنفردة تعطي معلومات بخصوص الأنماط والأشكال التي مر بها النوع وسرعة التغير والتطور في هذا النوع، مظهرة مثلا فيما إذا تطور هذا النوع إلى نوع جديد مختلف (في عملية ندعوها **الانتواع speciation**) تدريجيا وبشكل متزايد، أو خلال فترات زمنية قصيرة نسبيا ضمن الزمن الأرضي (الجيولوجي).

ثالثا: يعتبر السجل الأحفوري وثيقة للأنماط الكبيرة الانتشار والأحداث المهمة في تاريخ الحياة، والعديد من هذه المستحاتات قد أثرت بشكل فعلي في تصورنا للتاريخ التطوري لعلاقات القرابة.

مثلا **الانقراض الكبير** نتج في عدة أزمنة مؤديا لفقدان مجموعات كاملة من الأنواع، مثل الديناصورات غير الطيارة non-avian dinosaurs، في حين أنها لا تؤثر على مجموعات أخرى من الأنواع. مؤخرا استطاع علماء الحياة الجزيئية أن يستعملوا الزمن منذ تقارب **الأنساب lineages** المختلفة ليقوموا بمعايرة سرعة أو معدل التراكم التطوري، حساب أزمنة تطور **مجينات** الأنساب المختلفة.

\* **علم الوراثة العرقي**: كعلم يدرس أصل الأنواع وأسلافها، قدم وكشف أن البنى ذات التنظيم الداخلي المتشابه يمكن أن تقوم بوظائف متقاربة. أقدام **الفقاريات** تعتبر مثلا شائعا لهذه البنى **المتشابهة**.

#### \* علم المناعة

يعتمد هذا الدليل على تحديد درجة القرابة بين الأنواع المختلفة وفق التفاعلات المناعية التي تحدث بين مولد الضد (المستضد) و**الضد** الذي يشكله جسم الكائن الحي عند دخول مادة غريبة فيه؛ نتيجة لهذا التفاعل المناعي (ضد-مستضد) يحدث ترسيب للمواد المتفاعلة ويتشكل معقد مجرد من السمية.

مثال: عند حقن **بروتينات** مأخوذة من جسم **الإنسان** في جسم **خنزير الهند** يتولد في دمه أضداد (وهذه الأضداد قادرة على حرض مولدات الضد عند الإنسان على التفاعل المناعي معها)؛ عند أخذ الأضداد السابقة وحقنها في بلاسما دم **القرود** تحرض عنده ارتصاصا (أو ترسيبا) نسبته ٥٠% ويفسر هذا الترسيب وجود صلة تشابه بين القرود والبشر بنسبة متوسطة؛ مثل هذا الترسيب لا يحصل عند حقن الأضداد في دم **الجرابيات** أو **الطيور** لعدم وجود التشابه بينها وبين الإنسان.

#### \* أسلاف الكائنات الحية

في **علم الأحياء**، تعتبر نظرية **السلف المشترك** العام universal common descent نظرية تقترض أن جميع الأحياء الموجودة على سطح الأرض تنحدر من سلف مشترك وحيد عام أو لنقل حوض جيني أصلي وحيد. تستند نظرية السلف المشترك إلى وجود سمات

مشتركة بين كافة المتعضيات الحية. في أيام داروين كانت الاثباتات على التشارك بالسماوات يستند فقط إلى الملاحظات المرئية للتشابهات الشكلية، مثل حقيقة أن جميع الطيور حتى التي لا تطير تملك أجنحة.

أما اليوم فهناك إثباتات أقوى تقوم على أساس علم الوراثة تؤكد وجود السلف المشترك. مثلاً، كل خلية حية تستخدم نفس الحمض النووي كمادة وراثية (دنا ورننا)، وتستخدم نفس الحموض الأمينية كوحدات بناء للبروتينات.

إضافة لذلك فإن جميع الأحياء تستخدم نفس الشفرة الوراثية (باختلافات ضئيلة ونادرة) لترجمة الحموض النووية إلى تسلسل الحموض الأمينية الذي تشكل البروتينات في النهاية. هذه التماثل العام لهذه السماوات المشتركة في خلايا جميع الكائنات الحية يطرح بقوة فرضية السلف الواحد للأحياء.

المعلومات حول التطور المبكر للحياة يتضمن مدخلات من حقول معرفية كالإراضة (الجيولوجيا) وعلوم الكواكب planetary science.

هذه العلوم توفر معلومات حول تاريخ الأرض المبكر والتغيرات التي أنتجت الحياة بالرغم من العديد من المعلومات قد دمرتها الأحداث الجيولوجية عبر الزمن.

## معارضوا نظرية التطور

حمل لواء معارضة نظرية التطور عالمين مشهورين في بداية ظهور النظرية وهما أغزير في الولايات المتحدة وأوين في بريطانيا جان لويس رودلف أغزير، حصل على دكتوراه من ميونخ ثم أتم دراسة الطب ١٨٣٠ وبعد ذلك أصبح أستاذ التاريخ الطبيعي في Neuchatel في سويسرا، ومن منجزاته دراسة شاملة عن أحافير الأسماك وطبعت في خمس مجلدات ما بين عامي ١٨٣٣ و ١٨٤٤ ودفع تكلفة طباعتها العالم الأوربي المشهور Humbolt وحصل أغزير على جائزة Wollaston Prize على هذا الإنجاز، وبعد ذلك انتقل Agassiz لدراسة الجليديات glaciers وأصبح مؤسس علم الجليديات وقد أزجت نتائج أبحاثه مؤيدو دارون لأن النظرية في وقتها كانت تعتمد مبدأ uniformitarianism وهو مبدأ يقضي بعدم وجود تغيرات غير تقليدية في الزمن الغابر. وبعد اشتهاره كعالم أوربي انتقل أغزير إلى الولايات المتحدة وأمضى ٢٧ عاماً معظمها كأستاذ في جامعة هارفرد وعند طباعة "أصل الأنواع" رفض أغزير أفكار الكتاب وأصبح من أهم معارضي النظرية.

## نظرية التطور و الإيمان بالله

الكثير ممن يحاولون تصوير نوع من التضاد بين هذه الفرضية ومسألة الإيمان بالله، ولعل الحق يعطى لهم من جهة، حيث أنّ العقيدة الداروينية في واقعها قد أوجدت حرباً شعواء بين أصحاب الكنيسة من جانب ومؤيدي داروين من جانب آخر، حتى وصل الصراع ذروته بين الطرفين في تلك الفترة بعدما لعب الظرف السياسي وكذا الاجتماعي دورهما (مما لا يسع المجال لشرح ذلك هنا)، فكانت النتيجة أن اتهم أصحاب الكنيسة الداروينية بأنها لا تتسجم مع الإيمان بالله<sup>٥٥</sup>.

<sup>٥٥</sup> ينظر كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

وقد كشفت الأيَّام عن عدم وجود تضاد بين الأمرين، فإننا سواء قبلنا بفرضية التكامل أو نفيناها لفقدانها الدليل، فلا يمنع من الإيمان بالله بكل الاحتمالين.

فإذا قبلنا بالفرضية فلكونها قانوناً علمياً مبنياً على العلة والمعلول، ولا فرق في العلاقة بين العلة والمعلول في عالم الكائنات الحية وبقية الموجودات، فهل يعتبر اكتشاف العلة الطبيعية من قبيل نزول الأمطار، المد والجزر في البحار، الزلازل وما شابهها، مانعاً من الإيمان بالله؟ الجواب بالنفي قطعاً.

إذن فاكتشاف وجود رابطة وعلاقة تكاملية بين أنواع الموجودات الحية لا يؤدي إلى تعارض مع مسألة الإيمان بالله كذلك.

إذن، فالأشخاص الذين يتصورون أن كشف العلة الطبيعية ينافي الإيمان بوجود الله هم الذين يذهبون هذا المذهب وإلا فإنَّ كشف هذه العلة ليس - فقط - لا يتعارض مع التوحيد، وإنما سيعطينا أدلة جديدة من عالم الخليقة لإثبات وجوده سبحانه وتعالى.

ومما ينبغي ذكره: أنَّ داروين قد تبرأ من تهمة الإلحاد وصرح في كتابه (أصل الأنواع) قائلاً: إنني مع قبولي لتكامل الأنواع فأني اعتقد بوجود الله، وأساساً فإنَّه بدون الاعتقاد بوجود الله لا يمكن توجيه مسألة التكامل.

وقد كُتِبَ عن داروين بما نصه: (إنَّه بقي مؤمناً بالله الواحد رغم قبوله بالعلل الطبيعية في ظهور الأنواع المختلفة من الأحياء، وقد كان إحساسه بوجود قدرة ما فوق البشر يشد في أعماقه كلما تقدم في السن، معتبراً أن لغز الخلق يبقى لغزاً محيراً للإنسان)<sup>٥٦</sup>.

كان يعتقد أن توجيه هذا التكامل النوعي المعقد والعجيب، وتحويل كائن حي بسيط جداً إلى كل هذه الأنواع المختلفة من الأحياء لا يتم إلا بوجود خطة دقيقة يضعها ويسيرها عقل كلي. وهو كذلك.. إذ كيف يمكن إيجاد كل هذه الأنواع العجيبة والمحيرة والتي لكل منها تفصيلات وشؤون واسعة، من مادة واحدة بسيطة جداً وحقيرة.. كيف يمكن ذلك بدون الإستناد على علم وقدرة مطلقين؟!.

النتيجة: إنَّ الضجَّة المفتعلة في وجود تضاد بين عقيدة التكامل النوعي وبين مسألة الإيمان بالله إنما هي بلا أساس وفاقة للدليل (سواء قبلنا بالفرضية أو لم نقبلها).

## القرآن وعلماء المسلمين ومسألة التكامل

الجدير بالذكر أن كلا من مؤيدي ومنكري فرضية التكامل النوعي - نعني المسلمين منهم - قد استدلَّ بآيات القرآن الكريم لإثبات مقصوده، ولكلِّهما في بعض الأحيان وتحت تأثير موقفهما قد استدلا بآيات لا ترتبط بمقصودهما إلا من بعيد، ولذلك سنتطرق إلى الآيات القابلة للبحث والمناقشة.

أهم آية يتمسك بها مؤيدو الفرضية، الآية الثالثة والثلاثون من سورة آل عمران (إنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم، وآل عمران على العالمين).

فيقولون: كما أنَّ نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران كانوا يعيشون ضمن أممهم فاصطفاهم الله من بينهم فكذلك آدم، أي ينبغي أنَّه كان في عصره زمانه أناس باسم «العالمين» فاصطفاه الله من بينهم، وهذا يشير إلى أن آدم لم يكن أول إنسان على وجه الأرض، بل كان قبله أناس آخرون، ثمَّ امتاز آدم من بينهم بالطفرة الفكرية والروحية فكانت سبباً لاصطفائه من دونهم.

<sup>٥٦</sup> الداروينية، تأليف محمود بهزاد، الصفحة ٧٥ و ٧٦.

وما يؤخذ على هذا الاستدلال فهو أنّ كلمة «العالمين» إنّ كانت بمعنى الناس المعاصرين لأدم (عليه السلام) وأنّ الإصطفاء كان من بينهم، كان ذلك مقبولاً، أمّا لو اعتبرنا «العالمين» أعم من المعاصرين لأدم، حيث تشمل حتى غير المعاصرين، كما روي في الحديث المعروف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في فضل فاطمة عليها السلام حيث قال: «أمّا ابنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين»، ففي هذه الحال سوف لا تكون لهذه الآية دلالة على مقصودهم، وهو شبيه بقول قائل: إنّ الله تعالى اصطفى عدّة أشخاص من بين الناس جميعاً في كل القرون والأزمان، وأدم (عليه السلام) أحدهم، وعندها سوف لا يكون لازماً وجود أناس في زمان آدم كي يطلق عليهم اسم «العالمين» أو يصطفي آدم من بينهم، وخصوصاً أنّ الإصطفاء إلهي، والله عزّ وجلّ مطلع على المستقبل وعلى كافة الأجيال في كل الأزمان<sup>٥٧</sup>.

وأما مؤيدو ثبوت الأنواع فقد اختاروا الآيات مورد البحث وما شابهها، حيث نقول إنّ الله تعالى خلق الإنسان من تراب من طين متعفن.

ومن الملفت للنظر أنّ هذا التعبير قد ورد في صفة خلق «الإنسان» (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) - الآية السادسة والعشرون من سورة الحجر، وأيضاً في صفة خلق «البشر» (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) الآية الثامنة والعشرون من سورة الحجر، وفي مسألة سجود الملائكة بعد خلق شخص آدم أيضاً (فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنُقِئَتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١))<sup>٥٨</sup>.

عند الملاحظة الأولى للآيات يظهر أنّ خلق آدم كان من الحمأ المسنون أولاً، ومن ثمّ اكتملت هيبته بنفخ الروح الإلهية فيه فسجد له الملائكة إلا إبليس.

ثمّ إنّ أسلوب تتابع الآيات لا ينم عن وجود أيّ من الأنواع الأخرى منذ أن خلق آدم من تراب حتى الصورة الحالية لبنيه.

وعلى الرغم من استعمال الحرف «ثمّ» في بعض من هذه الآيات لبيان الفاصلة بين الأمرين، إلا أنّه لا يدل أبداً على مرور ملايين السنين ووجود آلاف الأنواع خلال تلك الفاصلة.

بل لا مانع إطلاقاً من كونه إشارة إلى نفس مرحلة خلق آدم من الحمأ المسنون، ثمّ مرحلة خلقه من الصلصال، فخلق بدن آدم، ونفخ الروح فيه.

وذلك ما ملاحظه في استعمال «ثمّ» في مسألة خلق الإنسان في عالم الجنين والمراحل التي يطوئها.. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ بَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ)<sup>٥٩</sup>.

<sup>٥٧</sup> وهناك احتمال آخر وهو: أنّ اصطفاء آدم من بين أولاده بعد أن مرّت عليهم مدّة ليست بالطويلة فتشكل من

بينهم مجتمع صغير.

<sup>٥٨</sup> الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١ من سورة الحجر

<sup>٥٩</sup> سورة الحج/ الآية ٥٠



فهذه الآية المباركة تدل على أن استعمال «ثم» يعبر عن وجود فاصلة ليس من الضروري أن تكون طويلة، فيمكن كونها فاصلة طويلة أو قصيرة<sup>٦٠</sup>.

### كيفية علم الإمام(عليه السلام) بهذه الأمور

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ عبارات الإمام(عليه السلام) بشأن ظهور العالم ونشوء الخلق لم ترد بصيغة فرضية واحتمال أبداً، بل صورها(عليه السلام) وكأنه يشهد ذلك الظهور، وهذا دليل على استناد علمه إلى خزانة علم الغيب الإلهي أو تعليمات النبي (صلى الله عليه وآله). التي تستند إلى الوحي حتى تحدث ابن أبي الحديد بهذا الشأن فقال: «إنّ أمير المؤمنين علي(عليه السلام) كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه(عليه السلام)»<sup>٦١</sup>.

وكيف لا يكون الإمام(عليه السلام) كذلك وهو القائل: «أنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض»<sup>٦٢</sup>.

### قائمة المصادر والمراجع

- \* القرآن الكريم
- \* نور الولاية في شرح نهج البلاغة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
- \* تفسير الأمتل في كتاب الله المنزل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
- \* ظل نهج البلاغة الشيخ محمد جواد مغنية
- \* شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
- \* أصل الأنواع: نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي أو الاحتفاظ بالأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة تأليف تشارلس داروين ؛ ترجمة مجدي محمود المليجي ؛ تقديم سمير حنا صادق. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤.
- \* مقدّمة الماكروديناميكا الاجتماعية: النمذجة الرياضية لتطور المنظومة العالمية قبل سبعينيات القرن الماضي "مجلة كلية الآداب لجامعة القاهرة مجلد ٦٨ سنة ٢٠٠٨ الجزء الثاني صفحات ١٤٨-١٨١.
- \* أندريه كاراطائف - مقدمة الماكروديناميكا الاجتماعية. النمذجة الرياضية لتطور المنظومة العالمية. ISBN: ٥-٤٨٤-٤١٤-٠٠٤
- \* نظرية التطور عند مفكري الإسلام، دراسة مقارنة محفوظ علي عزام. القاهرة، دار الهداية، ١٩٨٦.

<sup>٦٠</sup> ينظر كتاب الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل للعلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

<sup>٦١</sup> شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٠ / ١

<sup>٦٢</sup> نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.